

المجال الخامس عشر
الثرب

ورد النهي في هذا المجال في سياق واحد لآدم وحواء عن القرب من شجرة معينة موجودة في الجنة، في قوله جل شأنه: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣٥).

يقول الراغب في المفردات: "القُرْبُ والبعد يتقابلان. يقال: قَرُبْتُ منه أَقْرَبُ «٣»، وَقَرَّبْتُهُ أَقْرَبُهُ قُرْبًا وَقُرْبَانًا، ويستعمل ذلك في المكان، وفي الزمان، وفي النسبة، وفي الخطوة، والرعاية، والقدرة. فمن الأول نحو: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (البقرة: ٣٥) ... وفي الزمان نحو: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ... وفي النسبة نحو: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ ﴾ (النساء: ٨).

وفي الخطوة نحو: ﴿ ... وَبِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ... ﴾ (آل عمران: ٤٥) وفي الرعاية نحو: ﴿ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦) ... وفي القدرة نحو: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلِ الْوَرِيدِ ﴾ (ق: ١٦). قوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ﴾ (الواقعة: ٨٥)، يحتمل أن يكون من حيث القدرة^(١).

وقيل: "القرب: ضد البعد والقيام بالطاعة. وفي الاصطلاح قرب العبد من الله تعالى بكل ما يعطيه والسعادة لمن كان أقرب إلى الله تعالى وإلا فالقرب عام فإنه تعالى قريب إلى كل عبد شقي أو سعيد حيث قال: وهو معكم أينما كنتم^(٢)."

وقال العسكري: "الفرق بين الدنو والقرب: أن الدنو لا يكون إلا في المسافة بين شيئين تقول: داره دائية ومزاره دان، والقرب عام في ذلك وفي غيره، تقول: قلوبنا تتقارب، ولا تقول تتدانى، وتقول: هو قريب بقلبه، ولا يقال: دان بقلبه إلا على بعد^(٣)، وقيل: "القُرْبُ: الاتصاف بدوام الأوقات بمرايضة، وقيل: هو أن يتدل على المحبوب^(٤)"، أما الشجرة فورد في تعريفها: "السَّجْرُ مِنَ النَّبَاتِ: ما له ساق...^(٥)".

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ١ / ٦٦٣ وما بعدها

(٢) دستور العلماء، عبد رب النبي نكري، ٣ / ٤٨

(٣) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ١ / ٢٣٦

(٤) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، السيوطي، ١ / ٢١٤

(٥) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، ١ / ٤٤٦

في هذا السياق الكريم "نهى الله سبحانه وتعالى آدم عن أن يقرب شجرة من أشجار تلك الجنة التي أسكنه فيها، وأباح له الأكل رغدا من ثمارها. وهذه الشجرة لم يعرض القرآن لبيان نوعها، ولهذا فهي. في محيط القرآن. غير معروفة النوع ولا الصفة، وإن كانت معروفة لآدم، حيث أشار إليها الحق سبحانه وتعالى، إشارة كاشفة، حين نهاه وزوجه عنها، بقوله سبحانه: «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ».

وقد وصف إبليس هذه الشجرة لآدم وحواء، وصفا كاشفا لها، وللمعطيات التي ضمّت عليها، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ﴾ (١٢٠: طه) ويقول سبحانه: ﴿هُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوَاءٍ تَهُمَا وَقَالَ مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَن هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ (٢٠: الأعراف).

وهذه الأوصاف التي خلعتها إبليس على تلك الشجرة لا تلتقى مع الواقع، ولا تحدّث عن الحق، وإنما هي من تلفيقات إبليس وأكاذيبه، ليخدع بها ويغري. ومع ذلك فإن المفسرين والقصاص، قد ذهبوا في الحديث عن الشجرة ونوعها كل مذهب، مستندين في هذا إلى بعض الروايات المعزّوة إلى بعض الصحابة والتابعين، لتكتسب شيئا من الاحترام والقبول، وهي في حقيقتها إسرائيلية، وأساطير، وخرافات^(١).

وقد أورد الطبري أقوالا في نوع الشجرة المذكورة في السياق الكريم؛ فقال: "اختلف أهل التأويل في عين الشجرة التي نُهي عن أكل ثمرها آدم، فقال بعضهم: هي السنبله... وقال آخرون: هي الكرمة... وقال آخرون: هي التينة^(٢)"، ثم عقب بعد ذلك بقوله: "فالصواب في ذلك أن يقال: إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجه عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فخالفا إلى ما نهاهما الله عنه، فأكلا منها كما وصفهما الله جل ثناؤه به. ولا علم عندنا أي شجرة كانت على التعيين، لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك في القرآن، ولا في السنة الصحيحة فأئني يأتي ذلك؟ وقد قيل: كانت شجرة البر، وقيل: كانت شجرة العنب، وقيل:

(١) التفسير القرآني للقرآن، د. عبد الكريم الخطيب، ١ / ٧٠

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ١ / ٥١٦ وما بعدها

كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك عِلْمٌ، إذا عُلِمَ لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضرّه جهله به^(١)."

وقال صاحب الظلال في هذا السياق: "لقد أبيضت لهما كل ثمار الجنة.. إلا شجرة.. شجرة واحدة، ربما كانت ترمز للمحظور الذي لا بد منه في حياة الأرض. فبغير محظور لا تنبت الإرادة، ولا يتميز الإنسان المرید من الحيوان المسوق، ولا يمتحن صبر الإنسان على الوفاء بالعهد والتقيد بالشرط. فالإرادة هي مفرق الطريق. والذين يستمتعون بلا إرادة هم من عالم البهيمة، ولو بدوا في شكل الأدميين^(٢)".

إن النهي في الآية المباركة اختبار للخليفة آدم في جنة الاختبار قبل إنزاله إلى الأرض وتحمله لأمانة التكليف والعبادة إعدادا له وتدريباً ليعرف ويتذوق حلاوة الطاعة ومرارة المعصية، ويعرف أن في الطاعة الهناء والسعادة، وفي المعصية فراق الجنة؛ حيث الشقاء. ومن الألفاظ الشائعة في هذا المجال: آدم - زوجك - الجنة - تقرباً - الشجرة - كلا - رغداً - شئتاً - لا.

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، ١ / ٥٢٠ وما بعدها

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١ / ٥٨